في مكة المكرمة رأيت القليل من التراحم الإسلامي، والكثير من الإهمال السعودي

كتبه صابرينا رزاق | 4 أكتوبر ,2015

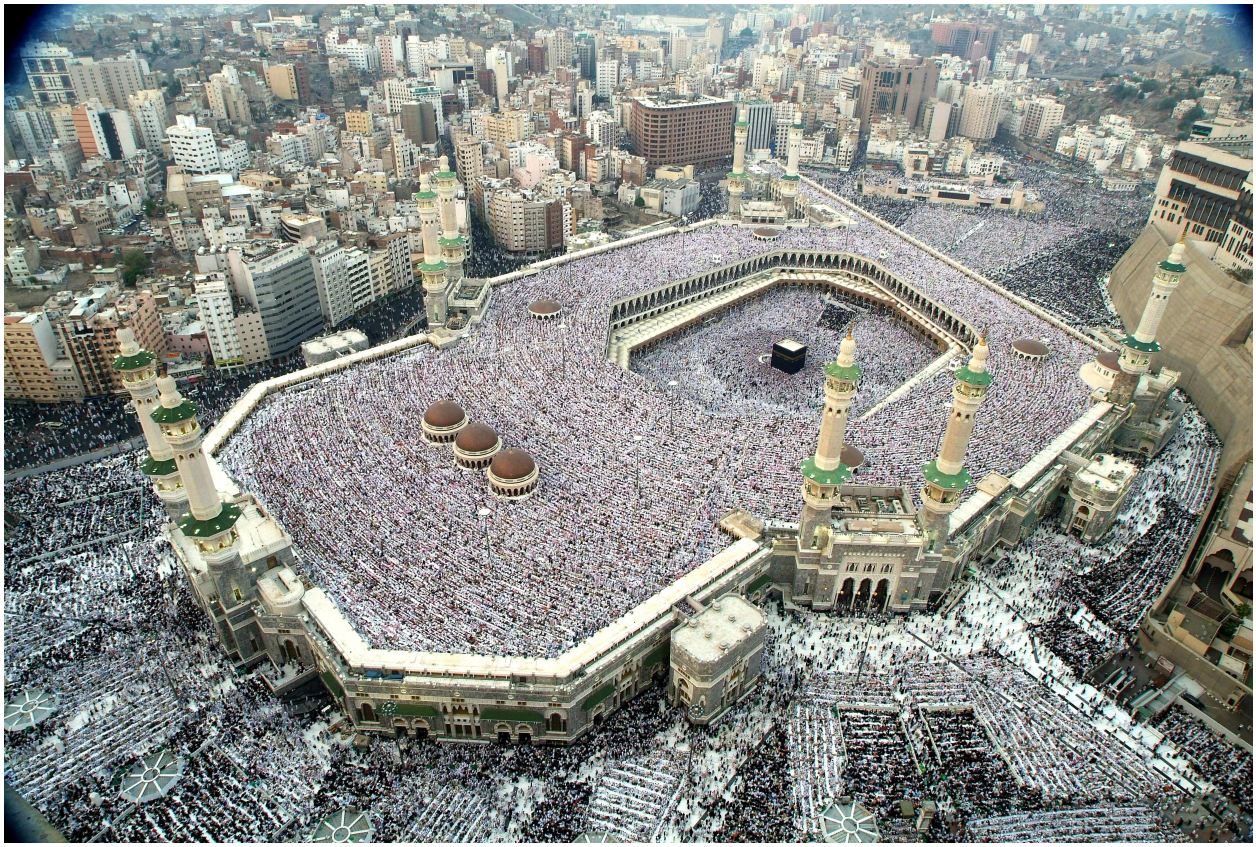

ترجمة وتحرير نون بوست

تبعًا لتجمع قرابة المليوني شخص في مدينة واحدة صغيرة امتثالًا لفريضة الحج، لا بد من توقع بعض الانزعاجات والتزاحمات والمصاعب أثناء قضاء الفريضة، وتحمل هذه المصاعب، كما كنت أعتقد في البداية، هي فرصة لممارسة الصبر في أقدس المدن، وهي خصلة قيّمة ومبجلة للغاية في عقيدتنا الإسلامية، لذلك بدأنا مسيرنا لأداء الفريضة آملين بالثواب.

ولكن مع وصول درجة الحرارة لما ينوف عن 40 درجة مئوية في مكة المكرمة، المتلازمة مع قسوة تعامل رجال الأمن والشرطة، عدوانية الحشود، والتنظيم الفوضوي، أصبح الضغط لا يحتمل، ومع مرور الأيام، لم أشعر في أي وقت من حياتي بعنف تضاد المشاعر الذي كان يعتريني أكثر من ذاك اليوم؛ فشعوري بالهدوء الروحي والرضا الذي اختبرته جرّاء خشوعي في كنف المسجد الحرام والأماكن المقدسة، كان يقابله الشعور بالقلق والضيق الذي تسبب به رجال الأمن القائمين على حسن سير مناسك الحج.

قبل وصولي إلى المملكة العربية السعودية مرافقة والداي لأداء فريضة الحج، دفعني جهلي للاعتقاد بأن الدولة الإسلامية الأغنى في العالم تستطيع أن تنظم مناسك الحج وتيسرها بشكل جيد للغاية، ولكن اليوم، وبعد عودتي مرة أخرى إلى المملكة المتحدة، أصبحت ممتنة لكوني على قيد الحياة، وما زلت أشعر بالذهول جراء ما شاهدت، وأنا الآن أفهم تمامًا لماذا قُتل مئات الأشخاص سحقًا في حادثة التدافع، ولا أعتقد بأن "مشيئة الله" يمكن استخدمها كذريعة لتبرير ما حدث.

بدأنا مناسك الحج بطقس إحمائي لطيف ويفيض بالكمال الروحي في شوارع المدينة المنورة المزدحمة ولكن المضيافة، حيث بقيت مجموعتنا، التي تضم حجاجًا قادمين من المملكة المتحدة، منظمة بشكل رائع، كما أن حالة والدتي المريضة بالسكري كانت مستقرة، والربو الذي يعاني منه والدي لم يتأثر، برحمته تعالى، من ارتفاع درجات الحرارة، وباعتباري حاجة وابنة وطبيبة عامة، كنت سعيدة ومتحمسة للغاية للتوجه إلى مكة المكرمة، ولكن الحقيقة التي شهدتها هناك كانت صادمة.

الدخول والخروج من وإلى المسجد الحرام والمواقع الأخرى كان يحمل في طياته معاناة لا توصف، حيث كان علينا معاونة مستخدمي الكراسي المتحركة للصعود والنزول من الأرصفة التي يبلغ ارتفاعها بعلو الركبة تقريبًا، في ظل عدم وجود طرق ممهدة لصعود مستعملي الكراسي المتحركة أو ما شابه ذلك من تسهيلات، وبالنظر إلى عدد الأشخاص الذين يعانون من إعاقة دائمة أو من ظروف منهكة، كان هذا الواقع يشكل صدمة كبيرة.

كانت الحرارة العالية، وقيظ الشمس الحارقة، أحد أشد التجارب المؤلمة التي عانينا منها، حيث تسبب الحر بإنهاك العديد منا وتعرض البعض الآخر للجفاف؛ فالقليل فقط من الطرق المزدحمة تم تزويدها بإمدادات المياه، وبعض طرق الحجاج المشتركة، كمكان الرجم على سبيل المثال، كانت خالية من أي إمدادات للمياه، عدا وجود بعض رجال الشرطة الشباب الذي يرشون المياه عشوائيًا على وجوه الحجاج.

آداب ومهارات تواصل المشرفين وعناصر الشرطة المنتشرين داخل وحول المسجد، كانت قصة أخرى يرثى لها، فمع وجود حجاج يأتون من مئات البلدان ومن كل فج عميق، كان من المفترض أن يتم التواصل معهم بلغة واحدة أخرى، على الأقل، غير اللغة العربية، ولكن الواقع كان مختلفًا، ليس ذلك فحسب، بل إن الطريقة التي كان الحراس يصرخون بها بصوت عالٍ في وجه الحجاج، بل حتى في وجه الحجاج الأكثر لطفًا، كان أمرًا غير متوجب، كما أنه سبب الذل للعديد من الحجاج، فلم يسبق، في أي وقت مضى، وأن تحدث أحد معي أو مع والداي بذات الطريقة المشينة التي تحدث بها الحراس معنا.

كما يبدو بأن الشيء الوحيد الذي خُوّل رجال الشرطة الشباب للقيام به، يتمثل بالصراخ بكلمة "لا" باللغة العربية، ووضع متاريس على طرق الدخول في الوقت والمكان الذي يحلو لهم دون سابق إنذار، مما قدم وصفة واحدة بديلة واضحة، التدافع وسحق الحجاج في أي مكان من الأراضي المقدسة.

كنا في المسجد عندما قام رجال الشرطة بوضع متراس يحظر خروجنا من المسجد، حيث قالوا لنا بأنه

يجب علينا الانتظار في مكاننا حتى انتهاء الصلاة التالية، وبعد حوالي ساعة ونصف الساعة، تزايد الضغط البدني الذي سببه تجمع مئات الناس الذين تجمعوا وراءنا، مما تسبب بقلق وهلع شديدين وحالات من فرط التنفس، وحينها سألت الحارس بأدب للسماح لنا بالخروج، ومن بعدها توسلت له حرفيًا ليسمح لنا بالخروج كون دواء السكري الذي تستخدمه والدتي كان في الفندق الذي يقع في مكان قريب جدًا من المسجد، ومستويات السكر لديها كانت تنخفض، ومع ذلك لم يشكل ذلك أي فرق لدى الحراس، وعندما عثرنا أخيرًا على حاج لترجمة ما كنا نقوله، رفض الحراس إخراجنا أيضًا، وأخيرًا عندما أجهشت بالبكاء وسألت الحراس "ماذا سيحدث إن انهارت والدتي وماتت هنا؟"، فكان الرد بهزة لا مبالية من الكتفين "إذا ماتت فقدرها أن تموت".

عائشة خان، وهي مديرة أعمال تجارية تقطن في مانشستر، وأحد أعضاء المجموعة السياحية ذاتها التي خرجنا معها، أخبرتني بعد بضعة أيام عن الحادثة المأساوية التي تعرضت لها إثر عدم فتح السلطات للحاجز ليسمحوا لزوجها بالوصول لها أثناء شعورها بتوعك شديد، وحينها إنهارت عائشة جسديًا، وحتى حين ذلك بقي المشرفون يضحكون ضمن مجموعة صغيرة، ولم يقدموا أي مساعدة لزوجها لاستدعاء سيارة إسعاف لإنقاذها، وتستذكر عائشة بأسى كيف كان زوجها يركض بذعر من طرف إلى آخر استجداءً للمساعدة.

أعمال التحسين أدت بشكل غير مباشر إلى وفاة مئات الأشخاص في الشهر الماضي عندما سقطت إحدى الرافعات على سقف المسجد الحرام

على أرض الواقع، طريقة إسعاف المرضى ضمن سيارات الإسعاف كانت تشكل معضلة أخرى، فسيارات الإسعاف كانت تُعاق ضمن حركة المرور المتوقفة دون إفساح أي مجال لها للمناورة أو للتجاوز، وفي إحدى الحالات، وبعد أن توقفت مع مجموعة من الحجاج والأطباء لمساعدة سيدة

ارتمت على الأرض خوفًا من أنها قد تعرضت لنوبة قلبية، كان من المغيظ للغاية أن أرى وصول مسعفين بالاسم فقط، وهم في الحقيقة مجرد سائقين في زي أبيض، لا يتمتعون بأي تدريب طبي حقيقي، حيث رفضوا حتى سماع الطريقة التي وقع بها الحادث، وعندما تقدمت قليلًا لأرى الجزء الخلفي من سيارة الإسعاف المعنية، صُدمت لعدم رؤيتي لأي معدات طبية واضحة ضمن السيارة على الإطلاق، وحينئذ تم إبعادنا باستهتار من قِبل الطاقم الطبي، حتى أن بعض أفراد عائلة السيدة المصابة تُركوا في الشارع مستسلمين للبكاء، بدون إعطائهم أي فكرة عن المكان الذي ستتجه له سيارة الإسعاف.

هناك العديد من التجارب المؤلمة الأخرى التي يمكن أن تروى حول هذا الموضوع، ويعرفها معظم الحجاج، ولكن إصرار البعض على أن مقتل مئات الأشخاص في حادثة التدافع تمثل مشيئة الله، وهي بالتالي أمر لم يكن بالإمكان تجنبه، هو شيء أرفض أن أتقبله؛ فأنا أرى بأن الإسلام يقوم على العقل والمنطق، فما لم تفعل كامل ما بوسعك وفق الوسائل التي تحوزها لتجنب وقوع الحوادث السيئة، لا يمكنك بعدها استخدام ذريعة إرادة الله لتبرير ما حصل.

بعض الأشخاص الذين أدوا مناسك الحج سابقًا يصفون كيف تسير الأمور على نحو أفضل ببطء مع مرور الوقت؛ فالسلطات السعودية ترفض منح تأشيرات الحج إذا سبق لمقدم الطلب أداء فريضة الحج خلال السنوات الخمس الماضية، في محاولة للسيطرة على تدفق الحجاج إلى بيت الله الحرام، وحاليًا يتم إتمام أعمال البناء في المسجد، وهي الأعمال التي أدت بشكل غير مباشر إلى وفاة مئات الأشخاص في الشهر الماضي عندما سقطت إحدى الرافعات فوق سقف المسجد الحرام، ومع ذلك فإن الحاجة إلى التغيير الجذري أصبحت ملحة.

جزء كبير من سوء إدارة الحج ينبع من أداء المملكة العربية السعودية بحد ذاتها، فالسلطات التي توجد حول وداخل الأماكن المقدسة غير مخولة لاتخاذ قرارات مستقلة، في حين يتم التعامل مع أفراد الأسرة المالكة وضيوفهم ككبار الشخصيات مع امتيازات مخصصة، وبالتالي ليس لدى العائلة المالكة أي دافع لحث السلطات لخلق نظام آمن وعملي.

في مكة المكرمة رأيت مسلمين، ولكنني لم أرَ إلا القليل من الإسلام، لم ألمس الرأفة والتراحم من مضيفينا، ولم أشعر بقلقهم ورغبتهم بتحقيق مصالحنا، إنني أحث جميع المسلمين والحجاج وجميع الناس، بألّا يخنعوا ويقبلوا بما ذكرته أعلاه باعتباره جزء من تحدي أو تجربة الحج، بل يجب أن يرفعوا أصواتهم، راسلوا نوابكم المحليين في البرلمان، اكتبوا رسائل إلى المجالس الإسلامية، واستفيدوا من مجموعات المجتمع المحلي للتعبير عن غضبكم، بغية إضافة زخم على الصخب الذي باشر بالظهور بالفعل ضمن الساحة الدولية.

الحج، هو من الشعائر الإسلامية المقدسة التي من المفترض أن تنير حياة الناس وتغيرها، لا أن تعرضهم للخطر أو للموت، ولقد حان الوقت لعودة الأمور إلى نصابها.

المصدر: الغارديان